الهوية في السينما الجزائرية المعاصرة–فيلم رشيدة–

بولعباس عبد الرحمن جامعة الحاج لخضر.باتنة

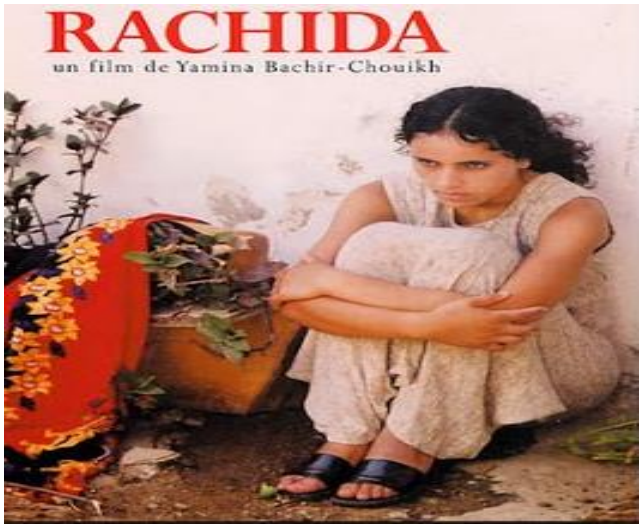

يمثل موضوع الهوية لدى الشعوب أمرا حيويا يرتبط أساسا بكينونة ووجود امة أو مجتمع ما، "فالهوية مجموعة متجانسة وهي الوعي بالذات والمصير التاريخي الواحد من موقع الحيز المادي والروحي، ويمكن أن تحدد وجهات الناس وأهدافهم وتدفعهم إلى العمل معا في تثبيت وجودهم والمحافظة على منجزاتهم وتحسين وضعهم في التاريخ"[1]

فالهوية من أهم ميزات المميزة للمجتمع، فهي تجسيد الطموحات المستقبلية في المجتمع، وتبرز معالم التطور الأمة وانجازاتها في المجالات المختلفة، وتنطوي على المبادئ والقيم التي تدفع بالإنسان إلى تحقيق غايات معينة،، فهوية مجتمع ما لا بد أن تستند إلى أصول تستمد منها قوتها، والى معايير مبادئ أخلاقية وضوابط اجتماعية.

وإذا تحدثنا عن السينما فلا لاش أن نستحضر ما لهذا الفن من تأثير كبير على الأفراد والجماعات، بحيث نجد أن القوى العظمى تستغله في فرض هيمنتها وتسويق إيديولوجيتها للقضاء على الخصوصية الثقافية لدى الشعوب الأخرى وبالتالي هدم الهوية المحلية، وهذا الذي نلاحظه في الأفلام الأمريكية التي يطغى عليها التركيز على كل ما يدعم هويتها والانتقاص من هوية المجتمعات الأخرى، وذلك أن السينما إحدى الوسائل الاتصالية الجماهيرية المتميزة بالنشاط والحيوية ذات جوانب جمالية تجمع بين الحركة والصورة والمؤثرات الصوتية في واحد مما يجعل حواس الشخص وعقله عرضة للإثارة إلى درجة التأثير في اتجاهاته ومن ثم اندماجه ومعايشته لها، ويأتي ذلك من خلال تراكم المتابعة حيث أن العرض الهائل للأفكار والقناعات المبثوثة عبر السينما تؤثر بشكل ملحوظ على المتلقي على مر الزمن.

فالصناعة السينمائية في عصرنا هذا مصنوعة بمواصفات خاصة تهدف إلى تحقيق المتعة البصرية وتجسيد

الوعي كخطوة لاحقة، بحيث يتم نسج تلك الصناعة بعناية فائقة في موضوعات شديدة الإثارة يحرص أصحابها على توظيف كل الخبرات والوسائل الفنية والتكنولوجية وكل ما يقنع على إقناع البصر.

أما إذا تحدثنا عن الهوية في السينما الجزائرية فهي ليست بمنأى عن تلك الممارسة سواء بالإيجاب أو السلب، أما الإيجاب فيتمثل في خدمة هويتنا وثقافتنا وقيمنا مثل ما شاهدناه في الأفلام الثورية التي كانت سفيرا جيدا للفرد الجزائري، أما سلبا فيتجسد من خلال تشويه حقائق ليست من مجتمعنا وكانت صورة سيئة عن مجتمعنا المحافظ المتشرب من الثقافة الإسلامية.

من هذا المنطلق كان لابد لنا من طرح بعض الأسئلة التي لا تبارح أي باحث في السينما الجزائرية، هل حقا وُظف صناع السينما الجزائرية مقومات الهوية الوطنية؟ والى أي مدى تجسدت الهوية الجزائرية على الشاشة من خلال الصورة والخطاب الفيلمي؟.

تمثل السينما صناعة ثقافية كبيرة في الجزائر التزم القطاع بترقيتها وتشجيعها، وقد نتج عن ذلك إنتاج الكثير من الأفلام سواء كان الإنتاج مشترك أو إنتاج أحادي جزائري، بحيث سعت إلى الاهتمام بالقضايا التي تحظي بأهمية وطنية وترتبط بمصير الأمة، وهذا لا انه يبلور ويصوغ رأيا عاما موحدا اتجاه قضية الأمة الواحدة، بالتالي هذه القضية التي تحظي بمثل هذا الإجماع تؤثر على تماسك الجماعة مما يدل على وجه من أوجه تشكّل الهوية الجمعية من خلال التوافق الحاصل، فالسينما الجزائرية دائما ما حاولت تحقيق ذلك الانسجام الاجتماعي والفكري من خلال تكوين رأي عام حول القضايا المطروحة خاصة بعد الاستقلال بحيث كانت في غاية الأهمية وملتزمة بقضايا الوطنية تدعم الفكر الموحد للشعب الجزائري من خلال تصوير أبطال الثورة وشجاعتهم مما يشحذ الهمة لدى الجمهور وتقوية هويته ومعرفة تاريخه المجيد، لكن سينما الألفية الثالثة حادت عن الطريق وأصبحت تعالج قضايا اقل ما يقال عنها قضايا تشوه صورة الهوية الوطنية أكثر ما تعطيها حقها، بحيث نجد بعض الأفلام التي حاولت البحث عن القواسم المشتركة لأفراد المجتمع الجزائري والتركيز عليها وتثمينها من اجل إيجاد خطاب مقنع للمتلقي، لكن ذلك لا يعني الدوس على قيم مجتمع محافظ، لان الفيلم السينمائي غايته تركيز وتدعيم الصورة الايجابية في مخيال المتلقي وتكرارية هذه العملية بشكلها الايجابي المقنع وليس الشاذ على المجتمع، لان ذلك الإقناع يؤدي إلى ترسيخ قناعات لدى المتلقي حول ما يراه على الشاشة حتى وان كانت تلك الأفكار ليست من هويته وتوجهاته وبالتالي تنعكس تلك الصورة التي رسمتها الشاشة السينمائية، لان تلك الرؤى والتصورات الصادرة من الكاتب أو المخرج ممكن أنها تعبر عن أرائه فقط، فالسينما يجب أن تكون من أولوياتها الدفاع عن مكونات الذاكرة الوطنية والتركيز على هذه الذاكرة ومن مقوماتها التراث الثقافي والحضاري للوطن وبالتالي الدفاع عن الهوية المحلية والعمل على تقويتها وترسيخها وتثمين أركانها.يكمن القول أن السينما الجزائرية بدأت ملتزمة بقضايا الأمة خاصة في خضم الثورة التحريرية وبعد الاستقلال فجل الأفلام التي أنتجت كانت قضيتها الثورة وتصوير أبطالا قاوموا المستعمر بالنفس والنفيس، لكن تلك النماذج مع الألفية الثالثة يمكن القول أنها أصبحت قليلة سواء كان ذلك لأسباب تجارية أو التغيرات التي طرأت على المجتمع وكان لزاما على المنتجين السير وفق العصر وفق

القضايا المعاصرة، لكن ليس بالطريقة التي اتخذتها، بحيث نرى أن السينما في الجزائر شهدت قفزة نوعية على مستوى التعبير البصري بحيث بدت أكثر جرأة على القضايا التي ترتبط بعادات وأعراف المجتمع الجزائري، وبهذا يكون التعبير البصري لهذه الأفلام قد ابتعد عن التفاعل الايجابي مع عناصر هوية المجتمع بعدما كانت منطلقاتها ملتزمة بقضايا المجتمع وتسعى لدعم عناصر هويته "فالصورة هي جوهر الفنون رغم حاجتها إلى التعبير، إلا أن الصورة خلقت لغة جديدة استحوذت على طاقة البصر فاعتقلت عقله ومخيلته ...فغيرت حياة العالم فأزالت القيود واخترقت الحدود وكشفت الحقائق...وقد شهدت الصورة عدة تحولات فنية في العصر الحديث وكان لها تأثيرات كبيرة في خلق مفاهيم جديدة على كافة الأنشطة الثقافية والمعارف الإنسانية"[2]، فالصورة لها دور في صناعة الوعي وإمكانية الإسهام في صياغة تفكير جديد، وهذا ما كان يجب أن تتخذه السينما الجزائرية خاصة تلك الأفلام التي أنتجت بعد الألفية مثل فيلم "**رشيدة**"و"**العالم الأخر**" بحيث نرى الصورة في هذين الفيلمين أكثر جرأة من أي وقت مضى في السينما الجزائرية من مشاهد مثيرة وقبلات وحتى مشاهد جنسية لا تعبر لا من قريب ولا من بعيد عن تلك الهوية الأصيلة للمجتمع الجزائري، فقيمة الفيلم تتحدد عندما تكون تلك الصور تخاطب وجدان الجمهور وتمثل قيم المجتمع من أخلاق وعادات وتقاليد مستمدة من الدين الإسلامي، لذا كان بالأحرى أن نشاهد قيم بطريقة مثالية مثلما نشاهد في السينما الغربية، تلك السينما التي تعبر عن هويتها بكل الوسائل حتى ولو كانت تلك الصور لا يوجد لها أساس على ارض الواقع، لكن من خلال تراكم البث سيحدث ذلك الأمر ويتقبله الجمهور على المدى البعيد، وهذا الذي يجب أن تتخذه السينما الجزائرية ، لكن بعض الأفلام سارت عكس القيم وداست على أعراف المجتمع بأكمله.

فالسينما من الوسائل الفعالة تكوّن الرأي العام لأنها موجهة إلى جميع الطبقات وتصل إلى أماكن لا تعرف أنواعا أخرى من الفن، واستطاعت الصهيونية أن تجعل السينما سلاحا فعالا في التأثير على الرأي العام العالمي للتعاطف مع قضية اليهود في فلسطين من تكوين رأي مضاد للعرب في أوروبا وأمريكا،"فالسينما بقدر ما تكون رسالة سامية بقدر ما تكون رسالة هدامة وذلك لدورها المؤثر الذي تلعبه في المجتمع، حيث أصبحت السينما ميدانا واسعا لتمرير الأفكار والمعتقدات بطريقة فعالة وخاصة أنها دخلت ميدان السياسة وتوفيرها الإمكانيات الهائلة لفبركة الأحداث، لذا فتأثيرها يكون فعال يترك تأثيره في الرأي العام لكوْن الإقبال على السينما من مختلف الأعمار وشرائح المجتمع"[3]، فالسينما لا يمكن استبعادها من المنظومة الإيديولوجية أو الدعية التي تستخدم عبرها أ و من خلالها، فهي وعاء بصري وسمعي يضم داخله مختلف جوانب حياة الإنسان يتجلى ذلك في العديد من تركيبات الفيلم لكن أكثرها تجليا الصورة والخطاب الفيلمي لما لهما من تأثير مباشر في المتلقي ويأتي ذلك من خلال التكرار سواء للصورة النمطية أو الخطاب المباشر، مثل ما نشاهده في السينما الأمريكية بحيث تسوّق لتلك الصورة النمطية عن العرب والإنسان العربي الذي صورته فيشخص ذو لحية سوداء، مقرف، ساذج، شهواني محب للنساء، غير شجاع، هذه الصورة نراها تقريبا في كل الأفلام التي تناولت البيئة العربية أو الفرد العربي ولو كحدث جزئي في تركيبة الفيلم، حتى أصبحت تلك الصورة مترسخة في فكر المجتمعات الغربية، وهذا كله راجع إلى قوة الإعلام والسينما في توجيه الرأي العام حسب

تصوراتهم ومعتقداتهم التي تخدم مصالحهم الوطنية، ط فالفيلم السينمائي وثيقة اجتماعية مهمة تساهم في رسم قوانين حركة وديناميكية المجتمع، وفهم طبيعة العلاقة الجدلية بين الإنسان والمجتمع، فالفيلم لم يعد يضع وجها لوجه ظواهر عالم متجانس من الموضوعات بل عناصر من الواقع غير متجانسة تماما"[4] فالسينما وسيلة مثلى لتقديم صورة مجتمع ما لدى المجتمعات الأخرى، فالفعل هو قبل كل شيء فعل ثقافي إيديولوجي، وهذا هو السبب الذي جعل العديد من الدول إلى النهوض بهذا القطاع، لان صناع السينما والساسة قد أدركوا الأهمية الكبيرة للصورة في هذا العصر، فالصورة **السينمائية** تساهم في توجيه العديد من القضايا الاجتماعية ،الثقافية والسياسية في الكثير من مناطق العالم التي بلغت فيها السينما مرحلة أعلى من التقدم التقني ،الفكري والإنتاجي،ولعل مازاد من تأثيرها اليوم هو التقدم التقني الرهيب الذي يعرفه هذا الفن في مجال مزج وتركيب الصور والحيل والخدع المستعملة، وهذا لان السينما وليدة المجتمع الذي ينتجها وهي مرآة له، وتعتبر الصورة السينمائية من الموضوعات الهامة والحساسة نظرا لمالها من تأثير كبير على المتلقي إضافة إلى انتشارها الواسع وسط الجماهير.

وبالرجوع إلى السينما الجزائرية في الألفية الثالثة سنأخذ فيلم **رشيدة** كعينة لدراستنا ومدى التزامه بالمبادئ الأساسية اتجاه الهوية الوطنية.

يتلخص فيلم رشيدة في معلمة هددتها جماعة إرهابية بحيث خيرتها بين وضع قنبلة في المدرسة التي تدرس بها أو القتل مما دفعها للهجرة خارج العاصمة والذهاب إلى الريف، وقد نجح الفيلم في تصويره لنا تلك المعاناة التي عاشتها نساء الجزائر فترة العشرية السوداء من اختطاف واغتصاب من طرف الجماعات الإرهابية وكيف تتم معاملة من هربت بعد اغتصابها، لكن تلك القضايا عالجتها المخرجة وفق تصورها مما يعني أن الفيلم عالج قضايا حساسة عاشتها الجزائر من منظور إيديولوجي مقتنعة به المخرجة خاصة التركيز على المرأة ودورها وتهميش دور الرجل.

يفتتح الفيلم من اللقطات الأولى التي تعرض علينا صورتين إحداهما للبطلة كامرأة نشيطة وحيوية منفتحة ومتحررة ذات شخصية قوية تتمتع بحياتها، وفي المقابل صورة لامرأة متحجبة وملتزمة بعاداتها وتقاليدها من خلال لباسها، لكن من خلال الحوار يتجلى أنها غير مقتنعة بما ترتدي وكأنه مفروض عليها، ويظهر ذلك من خلال حوارها مع البطلة "**راني مليحة كي خلاني راجلي نخدم**"[5]، فمضمون الحوار يعلن صراحة أن رجل المعلمة متشدد، وهي ترتدي الحجاب وتمتنع عن اخذ الصورة ليس اقتناعا منها بل مجارات زوجها فقط، واللقطة التالية تبين ذلك عندما شغلت البطلة جهاز بث الموسيقى وتضع إحدى السماعتين في أذن المعلمة لتظهر عليها السعادة والسرور وما طبيعة ردة فعلها اتجاه الموسيقى إلا تعبيرا عن رفضها للواقع المفروض عليها. **انظر** الصورة1

الصورة 01

هذه الصورة تجعلنا ندرك أن المخرجة رسالتها هي أن المرأة الجزائرية تستر نفسها وتتصنع التزامها خوفا من الأهل وليس من الخالق وهذا تشويه لصورة المرأة خاصة والمجتمع عامة المرتبط بدينه وشرفه، لان المرأة الجزائرية محافظة بإرادتها تطبيقا لشريعة الله .

عند مشاهدة الفيلم من اللقطة الأولى نرى تلك الخطابات والصور التي تعبر صراحة عن تحرر المرأة وإظهار زينتها ومفاتنها وظهر ذلك من خلال الحوار والأزياء والتركيز على جسد المرأة، وهذا المشهد يدعو إلى شكل من أشكال التحرر للمرأة الذي هو أصلا ليس من هويتنا و قيمنا وأخلاقنا من خلال بث صور توحي وكأننا في مجتمع غربي، ففيلم **رشيدة** "يقوم على خطاب إيديولوجي ضمني يدعو إلى تحرر المرأة الجزائرية من القيود والعادات والتقاليد والدين الإسلامي، ويظهر ذلك من خلال الأوضاع المختصة والغير المختصة الموظفة داخل الفيلم التي شكلت للمشاهد خطاب إيديولوجي الذي برز في المشاهد واللقطات الأولية للفيلم في تصوير البطلة رشيدة حرة طليقة وتقوم بعملية التجميل وترفض ارتداء الحجاب"[6]، فهذا التمرد يخلق هوة بين الجمهور والسينما لأنه يحمل أفكار فارغة من جميع القيم والأخلاق الجمالية للمجتمع، فالسينما ليست ترفيها أو نقل للواقع كما هو وإنما يستخدم كذلك في تمرير رسائل ورموز لأفكار معينة لثقافة المجتمع، لأن" الصورة هي الوحدة الأولى في اللقطة الفيلمية أو المكوّن الأول لبنية اللغة أو النسق الفيلمي، يعبر عن الدلالات والرموز من خلال ما تحتويه، فهي الوحدة الأولى للتأثير وإقناع المشاهد[7]

ونرى في الفيلم العديد من القضايا التي تجعلنا ندقق في تحليل هذا الفيلم لما يحتويه من صور وخطابات سلبية عن مجتمعنا، ففي الدقيقة 17نرى أم البطلة تصلي وفي المقابل نجد البطلة تنظر إليها وكأنها لا تعي ذلك الفعل الذي تقوم به أمها وهو الصلاة، والأمر لم يتوقف هنا بل تعدى إلى كلام البطلة مع أمها وهي تصلي وهذا يثبت جهل البطلة باركان الصلاة وهذه صورة سلبية تعبر عن جهل المرأة الجزائرية بالأمور الدينية وهذا لا يعبر عن هوية ذلك المجتمع المسلم العارف بدينه، وهنا يمكن يقول احد آخر أن التوتر هو الذي دفعها إلى ذلك الفعل، لكن هويتنا وثقافتنا الإسلامية تحيلنا إلى أن التوتر يخف أو يذهب بركوع ركعتين لله، لان ذلك سيؤدي لا محالة إلى تركيز وتدعيم تلك الصورة لما يعرفه المجتمع مسبقا عن دينه. **انظر الصورة 2**

الصورة2

في مشهد آخر يتجلى توجه المخرجة بصريح العبارة عن رأيها في ارتداء الحجاب، ففي الدقيقة 19و 39 ثانية نشاهد حوار بين رشيدة وزميلتها في المهنة تسألها عن سبب عدم ارتدائها الحجاب فترد عليها رشيدة بان الطبيب أعفاها

منه، لترد عليها زميلتها بان الحجاب فرضه الله، لكن رشيدة تمادت وقالت بان الله غفور رحيم، فيما ردت عليها زميلتها بان الله شديد العقاب، ليكون الرد من رشيدة شاذا ويسير عكس معتقداتنا الدينية بان الله غفور رحيم، صحيح أن الله غفور رحيم ولكن ليس بذلك المفهوم الذي آمنت به رشيدة وتريد المخرجة إيصاله للجمهور، وهنا بالضبط ماذا كانت تريد المخرجة أن توضح لنا؟ مما لاشك فيه هو أن هذا المشهد دعوة صريحة للتخلي عن الحجاب وتحرر المرأة وإبداء مفاتنها، لان حسبها الإيمان في القلب وفقط، وهذا التوجه يسير عكس المنظومة الفكرية والدينية للمجتمع الجزائري لأنه مجتمع واعي ومتيقن أن الإيمان في الفعل و القول .

فالفيلم بقدر ما عالج قضية حساسة وبالغة الأهمية في المجتمع الجزائري إلا أن طريقة معالجته ابتعدت كثيرا عن ثقافته خاصة فيما يتعلق بمواقف المرأة، حيث أرادتها أن تكون حرة وبدون قيود من خلال تصويرها لنا تواجه الصعوبات أكثر من الرجل، لذا الفيلم لم يعكس هوية مجتمعنا، فالفيلم السينمائي يجب أن يخاطب الأفراد بثقافتهم وقيمهم لا بثقافة وقيم الغرب البعيدة والمختلفة عن قيم مجتمعنا العربي الإسلامي.

نشاهد كذلك في اللحظة الموافقة للدقيقة 44 مشهدا شاذا يتمثل في التقاء البطلة بحبيبها بالقبلات وهذا الأمر لا يمس هوينا إطلاقا ولا يعكس أخلاقنا، ففي سنوات السبعينات والثمانينات كانت الأفلام التي تبثها التلفزة الجزائرية تحذف كل المشاهد التي لا تتوافق مع قيم المجتمع وهذا راجع إلى ثقافة وجذوره الإسلامية، مما يعني أنها لا تعبر عن هويته كمجتمع محافظ على قيمه وترابطه الأخلاقي، لكون تلك الأفلام خرجت عن النطاق وقدمت مشاهد صورته االقومية،"أما اليوم فإننا نلاحظ بين الفينة والأخرى محاولات واجتهادات عدد معتبر منة المخرجين السينمائيين لإنتاج أفلام جديدة يحاولون إلهامنا من خلالها على أنها مستقاة من الواقع الجزائري لينتظروا منها إحداث ضجة إعلامية وفكرية في المستوى، غير أننا إن أمعنا النظر والمتابعة لاكتشفنا أنها لا تمت بصلة للمجتمع الجزائري، لا من حيث منبعها ولا فكرها أو وسائلها كونها ليستن جزائرية، وما فيلم مسخرة... وقبلة ...اللذين استحوذا على حصة الأسد من الترويج الإعلامي خير دليل كونهما موجهين إلى جمهور غير جزائري، وقد سبقهما في ذلك كل من المخرج مرزاق علواش صاحب فيلم باب الواب الذي لم يعبر في مضمونه سوى محاولات القفز على الطبوهات من خلال إدراج بعض لقطات الاغواء والجنس"[8] انظر الصورة3

صورة رقم 03

ففي ذلك المشهد الذي نرى فيه تقبيل البطلة لحبيبها رسالة صريحة إلى شباب الأمة الجزائرية إلى أسلوب العيش الحضاري المنفتح حسب معتقدها وقناعاتها التي لا تعكس صورة مجتمعنا، ويتضح لنا أن المخرجة متشبعة بالثقافة الغربية أو أنها غير مقتنعة أو جاهلة بثقافة وقيم المجتمع الجزائري.

فالفيلم كان بالأحرى أن يسلك طريقه نحو بناء الشعور القومي والتعبير عن الهوية المحلية، لان الفيلم لديه القدرة على تشكيل وعي جديد وتزييف الوعي القائم وهذا التأثير غالبا ما يكون خفيا، بحيث يُمارس بطريقة تراكمية يتحول مع مرور الوقت الى جزء من النسق المعرفي الخاص وتظهر تجلياته في واقع الحياة اليومية، وهذا الذي شاهدناه في فيلم رشيدة والكثير من الأفلام الجزائرية التي أنتجت بعد الألفية الثالثة، وكأن هذه الأفلام في خدمة ثقافة الآخر وليس خدمة الثقافة المحلية، مثلا لو رأينا كيف تتعامل السينما الأجنبية وخاصة الأمريكية مع ثقافتها المحلية لوجدناها نعالجه بطريقة مثلى تجعل الفرد يتمنى لو كان جزء من ذلك المجتمع حتى ولو كانت تلك الصور غير صحيحة البتة، أما إذا رأينا كيف تعاملت مع انتجاتها في نقل صورة لمجتمع ما وخاصة العرب نجدها قد صورتهم بطريقة نمطية وداخل قوالب ثابتة من خلال تصويرهم بشكل مشين في جميع الجوانب وذلك من خلال تكرار الصورة الكاذبة لتتأصل هذه الصورة بعمق في تلك المجتمعات،بحيث لو أخذنا تجربة في المجتمعات الغربية عن تصورهم للعرب سيقولون ما رأوه على شاشة السينما والإعلام بصفة عامة.

ففيلم رشيدة قدم لنا الكثير من المشاهد التي تخدم الثقافة الغربية خاصة وأنها ركزت كثيرا على المرأة وتحررها من القيود المفروضة عنها حسب المخرجة، فالمرأة في مجتمعنا إذا صلحت صلح المجتمع لذا كان من الأفضل أن تعطينا تلك الصورة المثالية التي نعرفها عن المرأة الجزائرية سواء الأخت أو الأم أو الزوجة أو الابنة، وهذا الأمر يترك الكثير من الأمور الايجابية التي تترك الأثر البليغ في الجمهور في الاتجاه الصحيح لنقل صور نموذجية عن المجتمع الجزائري عامة والمرأة خاصة، لكن الفيلم صور لنا عكس ذلك حيث نشاهد في اللحظة المناسبة للدقيقة56 وعلى مدى دقيقتين البطلة تستمع إلى أغنية رومانسية، وظهر جليا أنها كانت متوترة وخائفة جراء الأحداث التي شهدتها القرية، وحسب المخرجة كان لابد من توظيف أغنية رومانسية والرقص عليها للحد من توترها لتهدأ لها نفسها، لكن ما لا تعلمه أو تجاهلته المخرجة هو أن التوتر والخوف والضغط النفسي يتعامل معه المجتمع الجزائري سماع القرآن للشعور بالطمأنينة وهدوء النفس المتوترة لان المجتمع الذي تعالج قضاياه كما قلنا سابقا هو مجتمع مسلم لذا فلتعطينا الصورة النموذجية عنه مثل ما تفعل السينما الغربية . انظر الصور4

الصورة 04

لقدصور لنا فيلم رشيدة العديد من المشاهد التي يمكن القول عنها أنها كانت خارج إطار هويتنا وان كان

الفيلم يعالج قضية حساسة عاشها المجتمع الجزائري، لكن تلك المعالجة كانت وفق منظور وتوجهات المخرجة التي يظهر عليها تأثير الثقافة الغربية عليها، حتى أننا نرى مشهدا في اللحظة الموافقة للدقيقة 45 البطلة مع حبيبها يسبحان وهي شبه عارية وهذا يدل على أن ما نشاهده الرجل ليس له الغيرة على زوجته المستقبلية وهي تسبح بملابس يظهر جسمها أكثر ما يغطي وسط جمع من الرجال.

وفي مشهد آخر لا يقل خطورة عن سابقيه ويؤكد لنا أن المخرجة تنقل لنا ثقافة غربية بحتة،ففي اللحظة المناسبة للدقيقة 48 نجد أم المختار تصرخ في وجه رجال القرية وتلومهم على جبنهم حتى أننا نجد شخص من القرية يصرح بذلك الخوف، وهنا هي تعبر صراحة عن ضعف شخصية الرجل مقارنة بالمرأة وتوظيفها للرجل توظيفا سلبيا، لكن الواقع غير ما نعرفه عن الرجل الجزائري وكيف واجه الإرهاب بشجاعة وضحى بالكثير من اجل الوطن أولا ومن اجل أهله ثانيا، كما أن شخصية حبيب البطلة مرت جانبا في الفيلم ولم يكن لها تأثير أو دور فعال في تحريك سير الأحداث، كما تواصل التوظيف السلبي للرجل في مشهد طرد رجل من ابناء القرية للنساء اللائي استضافهن لحضور حفل زفاف ابنته من بيته ليخرجن في الليل ويضعهن وجها لوجه مع الجماعة الارهابية وهي المشاهد لا تعكس قيم الرجل الجزائري وشهامته وشجاعته انظر الصرورة 5

كما أننا نرى في اللحظة الموافقة للدقيقة 52ذلك الأب الذي يصطدم مع الشاب الذي يحب ابنته خاصة وانه اقتحم عليه البيت في الليل ليخرج له أبوها بشكل تهريجي وهي قضية خطيرة ترتبط بشرفه وشرف ابنته وزوجها المستقبلي لذا كان من المفروض أن يستدعي

الصورة 05

هذا المشهد ردا أكثر قوة وحزما لارتباطه بعناصر الشخصية الوطنية والهوية كالشرف والحياء والحشمة وليس بذلك التهريج والكلام الغير اللائق، لان هذا المشهد لم يعكس لنا كيف يتعامل الرجل الجزائري مع مثل هذه المواقف لوضع حد لها ومن تصرفات الشباب الطائش، لذا كان يجب أن نرى حلول مثالية لمثل هذه المواقف لترك الأثر على الجمهور وتفادي مثل تلك المواقف في الحياة اليومية للعائلة الجزائرية.

في الدقيقة 59و24 ثانية نرى مشهد آخر من مشاهد الصور السلبية للرجل الجزائري لنرى تبرأ الرجل من ابنته التي اختطفت واغتصبت لأنها جلبت العار للأب بين الأهل والجيران وتتكفل بها أختها، وهنا لنا أمرين: الأول هو أن الرجل الجزائري له تفكير متحجر ولا يشعر بما تمر به ابنته وهذا ليس من شيم الرجل الجزائري لأنه معروف بالشهامة والغيرة على أهله، والأمر الثاني هو تصويرها لشجاعة المرأة على حساب الرجل وعلو صوت الابنة على الأب وتكفلها بأختها، وهذا تشويه لصورة المجتمع وهويته لأنها داست على إحدى مقوماته التي تتمثل في قوامة الرجل

على المرأة وكذا شهامته وطاعة الأبناء لآبائهم،"فحين تعلو كلمة المرأة فإنما حتما تعرب عن شذوذ لا تقبله البيئة ويكون الرجل تقهقر إلى وضع المعرة"[9] **انظر الصورة 6**

الصورة 06

ولكي لا نكون ذاتيين في تحليلنا لبعض مشاهد الفيلم من جانب تجليات الهوية الجزائرية من خلال الصورة والخطاب الفيلمي ونغوص في تحليل تلك المشاهد بكل موضوعية نقول انه كان هناك مشهدا يعبر اشد تعبير عن ثقافتنا وديننا وتجسّد ذلك ففي اللحظة المناسبة للدقيقة 35 حين نشاهد الابن يؤم أمه في الصلاة وعند الانتهاء نشاهد الأم رافعة يدها إلى السماء داعية وشاكرة لله، وهذا المشهد معبر وعاكس لهويتنا الجزائرية الإسلامية، فمن الجميل أن نرى ذلك الفعل في مشهد سينمائي، لأن ذلك هو الواقع والحقيقة والصورة المثالية للبيئة المحلية وطريقة ممارستها للحياة اليومية عامة والدينية خاصة، ويتجسد ذلك من خلال فعل الصلاة وطريقة جلوسهما على الأرض لاحتساء القهوة من طرف الأم وابنها ورؤية تلك الصور التي توحي بمحبة الأم لابنها بمدحه ونصحه وفي المقابل احترام الابن لها وتقبيل رأسها، كما يحيلنا هذا المشهد كذلك الى ان ليس كل من يمارس الشعائر الدينية ومحافظ على صلاته متشدد بل العكس هو ذلك الشخص الرزين الذي يعرف الحق من الباطل.انظر الصورة7

الصورة رقم 07

نجد أن الأفلام الألفية الثالثة وما تلاها نجدها أنها تفاعلت مع قيم وثقافة المجتمع بشكل مختلف عما كانت عليه السينما سابقا خاصة وان المرحلة الجديدة انفتحت على التمويل الأجنبي بعدما كانت السينما قبل ذلك تعرض أبطالا يحملون سمات الشخصية الجزائرية ويسيرون وفق القيم والهوية الوطنية من خلال تصوير تلك البيئة المثالية للمجتمع الجزائري خاصة وأن فيلم رشيدة أعطى الحرية المطلقة لتصرفات المرأة وفي المقابل تحديد دور الرجل في زوايا ضيقة، بحيث لم يكن له أي دور فعال في الأحداث بداية من حبيب البطلة إلى معلم المدرسة ورجال القرية، وفي المقابل نشاهد تصوير المرأة بشكل أوسع فهي التي تصرخ في وجه الرجال وتحمل أعباء الحياة والمعانات.

يظهر جليا أن انتاجات السينما الجزائرية المعاصرة في معظمها اجتمع فيها مصالح مادية وفكرية، بحيث أنتجت أفلام اجتماعية من منظور فراكوفوني وليس ديني أو وطني، لتظهر بذلك عناصر التبعية الثقافية على الشاشة السينمائية لتظهر كثقافة محلية والدفع بالمشاهد إلى التأقلم والتعايش مع ذلك الواقع مما ينتج لديه قناعات وقيم تبرز كأنها ملائمة لواقعنا وهذا يعتبر تشويه لهويتنا المؤسسة على الدين واللغة والتاريخ.

يمكن القول أن السينما الجزائرية بدأت ملتزمة بالقضايا التي استدعت ولادتها وهي في عمقها قضايا مرتبطة بالمجتمع وبمصير الأمة باعتبارها سلاحا قويا يدعم قضيتنا ويصور معاناة شعب اغتصبت أرضه، بحيث أخذت هذه السينما على عاتقها مهاما كبيرة وتواصل ذلك حتى بعد الاستقلال حاملة تلك القضايا وواصلت مسيرتها والتزامها بهوية الأمة الجزائرية ليجد الجمهور ذاته ومعتقداته الأصلية وتصوراته من خلال تصوير مواضيع حرب التحرير وأخرى تعالج القضايا الاجتماعية والبيئة المحلية وإعطاء صورة تليق ببلد مثل الجزائر سواء من الناحية الثقافية من تقاليد وعادات أو الناحية السياسية والاقتصادية وهذا كله يندرج تحت مسمى الهوية القومية للجزائرية، وذلك من اجل بناء الشخصية الوطنية وإعطاء شحنة ايجابية للجمهور وتفاعله مع مكوناته التي يؤمن ويعمل بها في الواقع لان تلك المواضيع كانت تعبر عن وجدان المجتمع لأنها حملت تاريخه وحاضره، لكن ذلك المسار انحرفت عنه مع مرور الزمن حتى أصبحنا نرى أفلاما جزائرية بالاسم فقط، أما جوهرها فلا نرى فيه إلا واقع مفروض على الجمهور على انه من هويتنا لتصبح بذلك سينما تسير عكس التيار لقيّم ومبادئ المجتمع.

وللوصول إلى سينما أصيلة ذات هوية جزائرية يجب على أهل الاختصاص الاهتمام بما يحصل في مجتمعنا مع تصوير الواقع الجزائري بطريقة فنية جمالية تعكس هويتنا العربية الإسلامية من خلال تصوير هويتنا على الشاشة السينمائية بأعمال راقية تجلب انتباه المشاهد .

الهوامش:

[1]– سالم الأبيض، الهوية، الإسلام، العروبة التونسية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،2009، ص33

[2]– جاب الله أحمد، الصورة في سيميولوجيا التواصل، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ص73

3– فؤاد الكنجي، أهمية السينما في المجتمع،

com.aswat-elchamal.www

[4]- ارنولد هاوزر، الفن والمجتمع عبر التاريخ، تر: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج1، بيروت 1981، ص372

5-cile protuction.art francecinima.cine sud promition .2002،فيلم رشيدة ليامينة شويخ

[6]- صورة المرأة في فيلم رشيدة، دلالة سيميولوجية

WWW.DJAZAIRESS.COM

[7]- نسمة بطريق، الدلالة في السينما والتلفزيون في عصر العولمة، دار الغرب للنشر والتوزيع، القاهرة 2004، ص 267

[8]- رمضان نرجس، سينما الجزائر لغير الجزائريين

www.djazairess.com alhiwar

[9]- سليمان عشراتي، الشخصية الجزائرية، الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، ديوان مطبوعات جامعة الجزائر، 2007، ص250